

غد الموسيقى في حاضرها

الكاتب



عبد اللطيف الزبيدي

هل خطر على بالك أن تتصور مستقبل الفنون العربية؟ لا تحسبنّ المئة عام رقماً نجومياً. كاتب الخيال العلمي الفرنسي جول فيرن، في أحد أعماله سنة 1863، «باريس في القرن العشرين»، يتخيل كيف ستكون الموسيقى في العام 1960: «ميشيل: سنعزف شيئاً من الموسيقى، لكن، لا داعي إلى الموسيقى الحديثة فهي صعبة جداً. الموسيقار جاك: اجلس على أصابع البيانو. ميشيل: كيف هذا؟ جاك: أقول لك اجلس. يجلس ميشيل على أصابع البيانو محدثاً هارموني صاعقة. جاك: ها أنت تصنع الموسيقى الحديثة. ثم يجلس جاك إلى البيانو ويهوي عليه بأنامله، بيديه، بمرفقيه. يسأله ميشيل: وما هذا؟ يجيبه: في زماني سوف يفهمني الناس».

جول فيرن لم يخطئ الهدف ولا حتى بمليمتراً، بل إن ما تصور مجيئه بعد قرن أتى قبل ذلك بعقود، فالموسيقى اللامقامية (آتونال) ظهرت قبل 1960. بالمناسبة، إلى الآن لم يجرب الموسيقيون العرب اللامقامية. هذه ليس فيها «يا ليلى يا عيني» ولا «ياللّي أمان». الرؤوس التي تنتظر الترنج كرقاص الساعة الحائطية، تخلع النعلين وتهرب. القلم ليس من المتيمين بهذا اللون، لا بشونبرج ولا ببير بوليز، غير أن الإعراض عن الفهم والإدراك والتدقيق والتحقيق تقصير فكري.

طريقة الاستعانة بالماضي في الاستشراف قد تكون مساعدة: كيف يكون رأي أحمد شوقي، حتى لا نذهب إلى أبي العلاء، لو عرضت عليه نصوص أدونيس؟ ماذا لو عرضت أعمال شتوكهوزن على بيتهوفن؟ بل ماذا لو سمعت لجنة القصبي، محمد عبدالوهاب... «مقطوعة ركبني المرجيحة»؟ ماذا لو قالت صاحبة الصوت لأم كلثوم: أنا فنانة مثلك؟ الحل بسيط، هو جوهرة بيان سعد زغلول: «مفيش فايدة، غطيني يا صافية».

ها نحن وصلنا إلى المراد. لقائل أن يقول: إن الماضي أفضل في الآداب والفنون، والبراهين مجرة شمس: الأشعار الكلاسيكية أروع من الحداثوية. جلال الدين الرومي أعظم من كل شعراء الحداثة في جميع اللغات. بدائعنا الكلاسيكية أترى من كل قصائد النثر.

باخ وموتزارت لا يقارنان بأي أعمال حديثة. لكن ذلك يحتاج إلى توضيح حتى لا يظن المتطفلون أن التهريج والتزوير أيضاً إبداع. أرنولد شونبرج وبيرر بوليز وكثيرون غيرهم، ذهبوا إلى بعيد في التجديد والغرائبية، لكنهم علماء عارفون، باحثون محققون مدركون، لم يقتحموا الميدان فضولاً وتنطعاً. لهذا أسماؤهم باقية. لزوم ما يلزم: النتيجة الاستباقية: يجب فرض مقاييس الطب والهندسة... لا بد من الأسس النظرية والعملية لدخول الساحة، وقاية من الطفيليات الضارة

abuzzabaed@gmail.com

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024